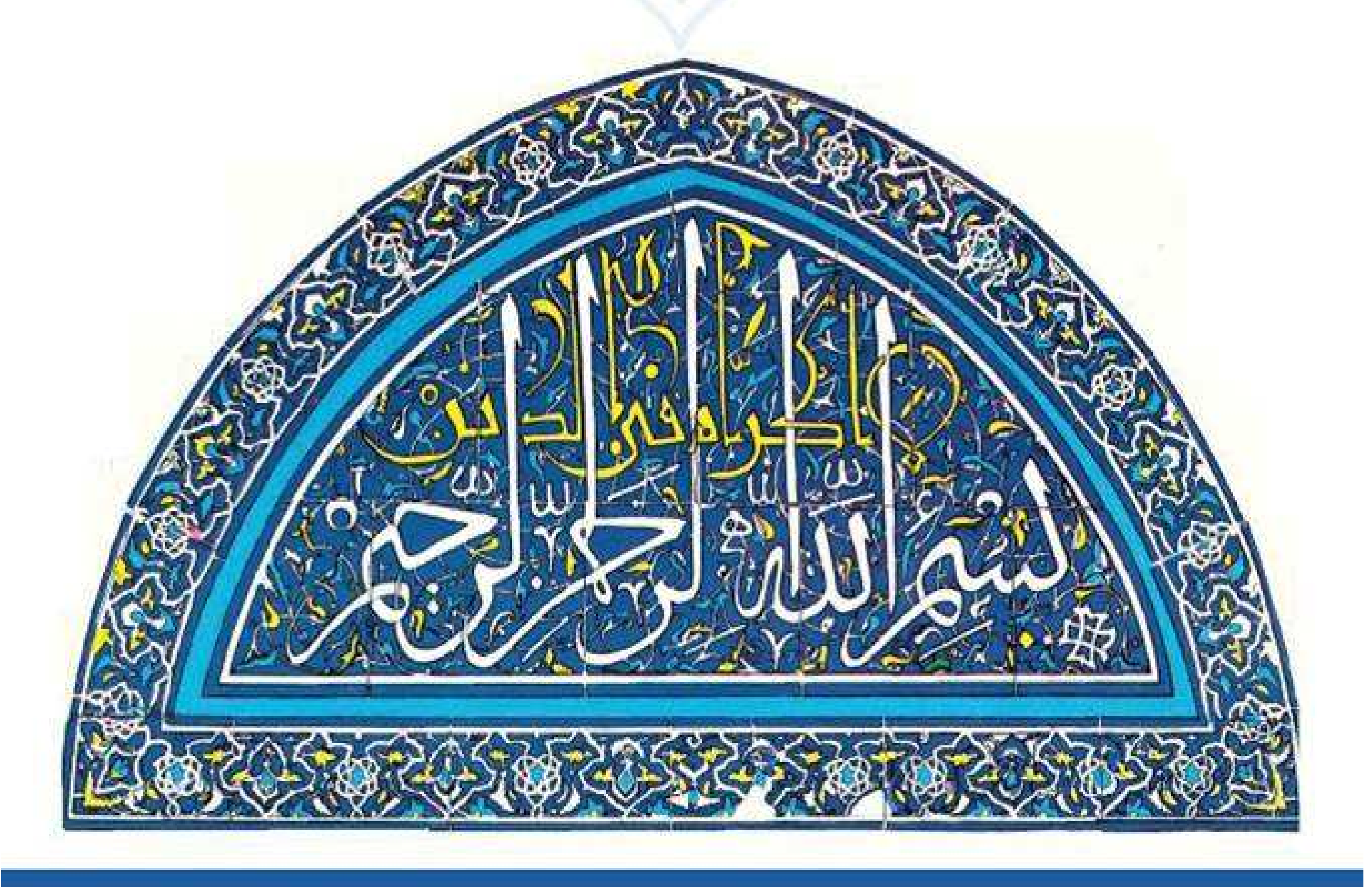
سامر إسلامبولي

مفاهيم ثقافية قرءانية

القُربى، أهل البيت، آل محمد

الغنيمة، الفيء



مفاهيم ثقافية قراءنية

القُربى، أهل البيت، آل محمد، الغنيمة، الفيء

سامر إسلامبولي

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }

الحجرات13



المقدمة

إن الأحداث في زمننا متسارعة والعالم يعيش في ثورة معلوماتية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وحتى لا يسبقنا الزمن، ويركمنا خلفه مادة تاريخية لابد من دخول ثورة المعلوماتية، وهذا لا يكون ابتداءً إلا بعملية النقد الذاتي الموضوعي والانفتاح على الرأي الآخر والتعايش معه وبناء علاقات اجتماعية نهضوية دون التدخل بالتصورات الذهنية الخاصة بالشخص.

حان الوقت لنتحرر من قيودنا الظلامية التراثية وفكر الأموات، ونرجع للتفكير الحر الذي أسسه القرءان ونثق بأنفسنا، وننفي الخرافات والأوهام وتقديس الأشخاص وتقليد البشر عن عمى وجهل وحمق، حان الوقت لنزيل الغشاوة عن أعيننا ونرى الحقيقة كما هي، حان الوقت لنفكر نحن ونقرأ بأعيننا وليس بعيون غيرنا كائن من كان، حان الوقت لننفي عن الناس ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، حان الوقت لنجلس ظهورنا ولا ننحني لأحد غير الله ، ولا نُقبِّل أحذية أحد ولا أيديهم لا ملوكا ولا رؤساء ولا رجال دين .

المفاهيم الخرافية هي التي تكرس الذل و التخلف والعنف والإرهاب في المجتمعات وتجعلهم يتناحرون فيما بينهم ويصيرون طوائف تكره بعضها ويضحك الشيطان عليهم لنجاحه في تشرذمهم وتصادمهم مع بعضهم .

ومساهمتنا في ذلك النقد إنما هي لإطلاع الآخرين على الرأي الآخر ليتسع أفق المعرفة وتتعدد الرؤى ويتم التعايش مع الآخرين للوصول إلى تجميع القوى الإسلامية والوطنية الفاعلة وتوحيدها ضد الفكر الاستبدادي الذي يستعبد الشعوب سواء من حكوماتها أو الأحزاب أو مؤسسات الكهنوت الديني على اختلاف مللها، أو القوى الاستكبارية الخارجية المحتلة.

هيا لنقرأ ونفكر ونتحرر من قبضة الأموات الذين أحييناهم نحن بجهلنا،وصرنا نقتات التراث ، هيا لنحطم القيود الداخلية النفسية الفكرية التي كبلنا أنفسنا بها.

القاهرة– 2014/12/20

مفهوم القُربى في القرءان لاعلاقة له بأقرباء النبي

{ **قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** }الشورى23

استُغِل مفهوم أهل بيت النبوة كثيراً في التاريخ، وأُعطي مضموناً إلهياً، وقامت الحروب على هذا المفهوم، وما زال إلى الآن يُعبأ إيديولوجياً ويسيَّس ،وتُحشد الجماهير على موجبه، وتُجمع الأموال باسمهم وتراق الدماء.

لننظر؛ هل أعطى القرءان لقرابة النبي محمد أو غيره من النبيين أي امتيازات عن الناس المؤمنين؟

قال تعالى :

1-{وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ **ابنِي مِنْ أَهْلِي** وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } {قَالَ يَا نُوحُ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } هود45-46

2- {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً **إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** }الأنعام74

3- {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ **أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ }التوبة114

4- {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ** }الزخرف26

5- {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ **وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** }البقرة124

6-{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ **فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ }التحريم10

7- {قُلْ إِنِّي **لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً** }الجن21

8- {**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** }الزمر13

9- {قُلْ إِنَّمَا **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }الكهف110

10- {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ** إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }يوسف67

11- {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ **وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ** وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }التحريم11

12- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي **وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً** إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }لقمان33

واضح في النصوص المذكورة أن النبي الوالد لا يُجزي عن ولده شيئاً ، والنبي الولد لا يُجزي عن أبيه شيئاً، وكذلك النبي لا يُجزي عن زوجته شيئاً، والزوجة الصالحة لا تُجزي عن زوجها شيئاً، ومن باب أولى القرابة الأبعد كالعم وابن العم والأحفاد والأسباط، {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ **فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ** يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ}

المؤمنون101، {**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** } عبس34-37.

أقرباء النبيين أو العظماء أو الصالحين ليس ذلك معياراً للصلاح ، وليس ميزة لأي إنسان، فالجميع أمام القانون الإلهي سواء كلهم لآدم؛ وآدم من تراب، هذا المفهوم محكم وثابت ينبغي دراسة النصوص المتعلقة بالأقرباء على موجبه، كما أن النبي لا يطلب أجراً قط على دعوته بصرف النظر عن نوعه مادياً أو معنوياً،{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }الشعراء109، {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ }ص 86 ، هذا المفهوم أيضاً محكم وثابت ما ينبغي نقضه حين الدراسة.

لنقرأ: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ }الشورى23

ينبغي أن نعلم أن دلالة كلمة (قل) في النص القرءاني مجردة عن قرينة تقيدها للنبي تكون عامة لكل من يصل إليه الرسالة مؤمناً بها.نحو{قلْ هوَ اللَّهُ أَحَدٌ }الإخلاص1، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }الفلق1، والنص المعني بالدراسة هو من هذا القبيل {...قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...}، **وكلمة (قربى) ليست جمعاً لكلمة (قريب) وإنما هي مصدراً**، لأن كلمة (قريب) تجمع على (أقرباء) أو(قريبين) ومصدرها قرابة، بينما كلمة (قُربى) تدل على الطاعات والأعمال التي يبذلها الإنسان في سبيل الله ولوجه لله {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ **مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ** لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ

اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }التوبة99، ولو كان المقصد بكلمة (القربى) قرابة النبي لقريش ويطلب منهم مودته لكان ينبغي أن تأتي بصيغة تدل على تعلقها بالنبي مثل:(إلا مودتي في القرابة)، ولو كان المقصد طلب المودة لأقرباء النبي لأتت الجملة بصيغة (إلا أن تودُّوا أقربائي)، ولو حصل ذلك لصار النص كذباً وينقض نفي عدم طلب الأجر، لأن ذلك الاستثناء هو أجر في واقع الحال، ولكن الجملة أتت{...قل لّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقرْبَى...} غير متعلقة بالنبي ولا بقرابته قط، وهذا يدل على أن دلالة كلمة (قربى) غير دلالة كلمة (قرابة أو أقرباء).

{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }النساء8

وكلمة(قربى) في النص هذا لايقصد بها القرابة، لأنه لايعقل أن مجرد حضور أحد من الأقرباء وكان غنياً ينبغي أن نرزقه! ولو كان المقصد بها القرابة لأتت كلمة (الأقربون) كما في قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ }البقرة180.

وهذا يدل على أن كلمة القربى حين إسقاطها على الواقع تدل على أصحاب القربات بمعنى أصحاب الحاجات سواء الخاصة مثل المرض والعجز أم العامة، أو أصحاب القربات لله الذين لايرجون من الناس شيئاً ولايطلبونه وهم في طاعة الله والعمل الصالح إما ممارسة أو حضاً عليه، فهؤلاء هم محل القربى فادعموهم ولاتنسوهم .

فنص {...قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...} لا علاقة له بالأقربين قط ، وهو من الاستثناء المنقطع بمعنى الاستثناء من نفي السؤال وليس الاستثناء من

الأجر لأن الأجر أي كان نوعه مادياً أم معنوياً انتفى كلياً، وهو مثل النص التالي: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً }الفرقان57، فالنص ينفي طلب الأجر على عمومه أي كان نوعه للنبي، ولكن استثنى قيام الإنسان بالتقرب لله وحده في الإنفاق في سبل الخير للناس وليس للنبي نفسه ، وهذا الاستثناء من النوع المنقطع، ويصير معنى نص {...قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...}: لَّا أَسْأَلُكُمْ أجراً أبداً لنفسي أو لأفراد أسرتي أي كان نوع الأجر مادياً أو معنوياً، ولكن أسألكم الصلة والتعاون والاهتمام والدعم و الاعتناء بالقربى، بمعنى بالمعروف والمساعدة لأصحاب الحاجات والطاعات والناس البررة ، وهذا يدل على طلب الصلة والدعم النفسي والمادي لأصحاب الحاجات في المجتمع، وهذا يعني أن الفائدة راجعة لهم وليس للنبي أو للداعية أو المعلم، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ }الأنعام90، {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }سبأ 47، ومثل ذلك كمثل رجل عمل معروف معك ولم يطلب أجراً لنفسه و قال لك: لا أريد منك أجراً إلا أن تنتبه لوالديك وبرهما واعتني بأولادك.

وبناء على ذلك تكون دلالة كلمة (لذي القربى) في النص التالي {وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ **وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى** وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأنفال41، هم محل القربى إلى الله، وهم ذو أصحاب الحاجات الخاصة

أو الإنسانية التي ترجع فائدتها إلى المجتمع، ***ولا علاقة لذلك بما يسمى الخُمس الذي يسلبه الكهنوت والهامانات من الناس من غير وجه حق باسم قرابة النبي وبتحريف مفهوم النص لشرعنة الاحتيال والنهب والسلب، و أكل أموال الناس بالباطل.***

لذا؛ مفهوم الحب والود لقرابة النبي ليس هو مطلباً دينياً أو واجباً، ونقيض الحب ليس الكراهية والبغضاء وإنما نقيضه اللاحب وهو موقف سلبي لايدل على شيء ، بينما الكراهية والبغضاء موقف يتجاوز نقيض الحب إلى العدوانية والحرب، وأقرباء النبي الصالحين ليسوا أعداء لنا ولانكرههم ، وموضوع حبهم كإعجاب بشخصهم وسيرتهم موقف شخصي لاعلاقة له بالدين ، ولو قرأنا القرءان كله لانجد ولا نص يحض على حب النبي محمد نفسه وإنما نجد أمراً باتباعه فيما نزل عليه من رسالة ونصرة دعوته والولاء له في حياته وحمايته ودعمه وطاعته كنبي وقائد وعالم ومعلم وإمام حينئذ، ولايوجد حب بمعنى الشعور والتعلق بشخصه، وإنما يوجد حب له بمعنى احترامه واتخاذه قدوة وأسوة حسنة واتباعه فيما نزل عليه من رسالة ،

{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }آل عمران31

أتعصي الإله وأنت تزعم حبه ....إن ذلك لعمري في القياس شنيع

لو كنت صادقاً في حبك لأطعته......إن المحب لمن يحب مطيع

لنقم بجولة تراثية ونقرأ تدبر بعض أهل التراث لمفهوم القربى للاستئناس والاطلاع على رأيهم:

1- ورد في تفسير القرطبي: روى منصور وعوف عن الحسن البصري " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " قال: يتوددون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته.

2-تفسير البغوي: **روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية: إلا أن تودوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن، قال: هو القربى إلى الله، يقول: إلا التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح.**

3- تفسير البحر المحيط: **وقال الحسن : المعنى إلا أن تتودّدوا إلى الله بالتقرّب إليه . وقال عبد الله بن القاسم : إلا أن يتودّد بعضكم إلى بعض وتصلوا قراباتكم .**

4- تفسير فتح القدير: **قال الزجاج : { إلاّ المودّة } استثناء ليس من الأوّل ، أي : إلاّ أن تودّوني لقرابتي ، فتحفظوني ، والخطاب لقريش . وهذا قول عكرمة ، ومجاهد ، وأبي مالك ، والشعبي ، فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجراً قط ، ولكن أسألكم المودّة في القربى التي بيني وبينكم ، ارقبوني فيها ، ولا تعجلوا إليّ ، ودعوني والناس ، وبه قال قتادة ، ومقاتل ، والسدّي ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس .**

5- تفسير لسيد طنطاوي :ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال إلا أن تودوا قرابتي ، أو تتقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول { فِي } في الكلام في هذا الموضع وجه معروف ولكان التنزيل إلا مودة القربى ، إن عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو إلا المودة بالقربى إن عنى به الأمر بالتودد والتقرب إلى الله – تعالى – .

وفى دخول { فِي } في الكلام أوضح الدليل على أن معناه إلا مودتي فى قرابتي منكم .

6- تفسير السعدي:

...ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: { إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم.

لذا؛ أهيب بالملة التي توظف أهل بيت النبوة وقرابتهم لمآرب شخصية وسياسية أن يكفوا عن ذلك التضليل والخداع للمسلمين ،وأدعو المسلمين أن يرتقوا بوعيهم ويتنزهوا عن تقديس البشر كائناً من كانوا، وليثقوا بأنفسهم وأنهم مكرمون طالما هم مؤمنون وصالحون.

مفهوم الآل والأهل

آل: تدل على القوة المثارة الممتدة زمانياً ومكانياً بثقل أو تكتل لازم.

وظهر ذلك المفهوم بالأتباع المتكتلين على نهج معين.لنقرأ قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }غافر46، وآل فرعون ليس هم حصراً المعاصرين له، وإنما هم كل من نهج نهجه في التفكير والإجرام.

{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ }آل عمران33، آل إبراهيم هم أتباعه إلى يوم الدين، وآل عمران كذلك هم أتباعه. {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }يوسف6، والملاحظ أن كلمة (آل) لا تضاف إلا للعقلاء ولا يصح مجيئها مع غير العاقل مثل مقولة: آل البيت، المشهورة بين العامة .

{إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ }الحجر59، وبورود كلمة (أجمعين) دليل على عدم استثناء أحد قط من آله، وأن النجاة تشمل جميع أتباعه، ولو كانت امرأة لوط من آله وقد ذكر النص الآخر أنها هالكة{إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ }الحجر60، لكان ينبغي حذف كلمة (أجمعين) والاكتفاء بكلمة (إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ) ويأتي الاستثناء {إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } فتكون امرأته من آله، ولكن بمجيء كلمة (أجمعين) دل على أن الاستثناء من نوع المنقطع الذي لا علاقة له بالمستثنى منه، وفي موضوعنا هو الآل، وإنما يشترك في الحكم فقط وهو نفي النجاة عنه، وهذا أسلوب يستخدمه القرءان مثل قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ }الكهف50، فإبليس

مستثنى من فعل السجود ولا علاقة له بالملائكة، وإنما اشترك معهم بأمر السجود فقط، لذا؛ أتى النص الآخر وذكر سجود الملائكة أجمعون {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ }الحجر30، وامرأة لوط هي من أهله بدليل {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ }الأعراف83، لاحظوا عدم مجيء كلمة (أجمعين) بعد كلمة (أهله) لأن امرأة الرجل من أهله، وامرأة لوط لم ينجها الله ، فأتى الاستثناء المتصل، وهذا دليل على أن كلمة آل غير كلمة أهل.

والصلاة الإبراهيمية التي يقولها المصلون في صلاتهم: اللهم صلي على محمد و على آل محمد...)؛ تدل على طلب الصلاة على محمد وأتباعه إلى يوم الدين، ولاعلاقة لذلك بأقرباء النبي قط إلا من كان منهم من أتباعه.

أهل: تدل على ظهور قوة خفيفة متحركة منضبطة بعلاقة متثاقلة لازمة.

وظهر هذا المفهوم بعلاقة جماعة بشيء وارتباطهم به كأصحاب أو أتباع أو ملكية أو خاصية ، وتضاف للعاقل ولغير العاقل،مثل أهل الجنة وأهل النار وأهل البيت، ولا يشترط الاتباع لها دائماً، ومن هذا الوجه ظهر التداخل بين مفهوم كلمة (آل) وكلمة (أهل) انظر قوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ **أَهْلِي** وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ }

{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ **أَهْلِكَ** إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }هود 45-46، فالنبي نوح ظن أن الله سوف ينقذ أهله بالمعنى المعيشي الأسري يشمل المؤمن بدعوته والكافر، حسب الوعد الذي وعده إياه، فأخبره الله إن الوعد بإنقاذ أهله صادق لاشك بذلك،

ولكن ليس بالمعنى الذي ظنه النبي نوح، وإنما بالمعنى الآخر للأهل وهو الاتباع للحق والعمل الصالح، ولم ينف صفة البنوة الفيزيولوجية والمعيشية عن ابن نوح فهو لاشك أنه من أهله بهذا المعنى، وإنما وجَّهه للعلاقة الحقيقية وهي الاتباع والعمل الصالح فنفى عنه ذلك بقوله {...يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...} نفى عنه بنوة الثقافة مع إثبات بنوة المعيشة.

انظر لدلالة كلمة (أهل) بمعنى أفراد الأسرة من أب أو عم أو أخ أو زوجة أو أبناء....أو القوم الذين ينتمي إليهم الإنسان.

{ فَانكِحُوهُنَّ **بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ }النساء25

{ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ **أَهْلُهُ** حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }البقرة196

{ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى **أَهْلِهِ** إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ }النساء92

{ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ **بِأَهْلِكَ** سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }يوسف25

{ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ **أَهْلِهَا** إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ }يوسف26

{ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ **أَهْلِيكُمْ** ...}المائدة89

{فَأَنجَيْنَاهُ **وَأَهْلَهُ** إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ }الأعراف83

انظر لدلالة كلمة (أهل) بمعنى أصحاب العلاقة بالشيء فقط.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ **إِلَى أَهْلِهَا** وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء58

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ **أَهْلِ الْمَدِينَةِ** مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }التوبة101

{وَلَوْ أَنَّ **أَهْلَ الْقُرَى** آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }الأعراف96

إذاً؛ لا يشترط لدلالة كلمة (أهل) أن تشمل القرابة ، قد تأت بدلالة القرابة والعلاقة معاً، وقد تنفرد بأحدهما.

مفهوم كلمة (بيت)

بيت: تدل على القوة المجتمعة الممتدة بتضام وتماسك المنتهية بدفع خفيف.

وظهر ذلك المفهوم بمعنى العلاقات المجتمعة بتماسك واستقرار.وهذا ما يفرق دلالة كلمة (بيت) عن كلمة (منزل) التي تدل على النزول في مكان معين فهي متعلقة بالمكان وليس بالعلاقات.

انظر قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }العنكبوت41، فالنص لا يتكلم عن شبكة العنكبوت التي هي منزله عملياً، وإنما يتكلم عن العلاقات التي تحكم أسرة العنكبوت، وهذا واضح من خلال فعل أنثى العنكبوت إذ تقوم بقتل الذكر بعد لقاحها مباشرة وتأكله إن كانت جائعة! وبالتالي تصير هي أرملة العنكبوت، وتُيَتِّم أولادها قبل أن يأتوا إلى الحياة ! فهذه العلاقة الأسرية هي أضعف علاقة في البيوت كلها، ويوصف كل بيت مُغَيَّب عنه دور الأب أو الأم ثقافياً أو معيشياً سواء بموت أو غيره من الأسباب ببيت العنكبوت، و الوصف يتناول كل بيت تغيب العلاقات الأسرية الدافئة عنه ويفتقد للمودة والمحبة والتعاون بين أفراده ، فهذا هو بيت العنكبوت، وهو أضعف البيوت.

كلمة (بيت) بمعنى المجتمع ونظامه الذي ينتمي الإنسان إليه ويعيش فيه.

{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً }نوح28

فالنبي نوح لا يقصد دخول قومه منزله أو مكان سكنه، مثل قوله تعالى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }النمل18، **وإنما يقصد دخول قومه الإسلام ويتبعوه في دعوته فهذا هو بيت النبي نوح وآله.**

{ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }النساء100

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ }الأنفال5

كلمة (بيت) بمعنى المنزل الخاص المحكوم بعلاقات صاحبه ونظامه، ودائماً تأت محددة أو مضافة.

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ }يوسف23

{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ }الذاريات36

{أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء }الإسراء93

{ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ }القصص12

كلمة البيت المعرفة في القرءان هي الكعبة أو الإسلام

لنرى دلالة كلمة (البيت) التي حددها القرءان بصياغته ثم استخدمها في نصوص أخرى دون تحديد لها واعتمد على أل العهد التي تفيد أن المعنى معروف عند السامع أو القارئ.

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ }آل عمران96

{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }آل عمران97

{جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }المائدة97

{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ }الحج29

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }قريش3

نلاحظ من النصوص السابقة أن دلالة كلمة (البيت) هي الكعبة وليس أي بيت.

وبعد أن ثبت لنا المقصد من دلالة كلمة (البيت) المعرفة لنرى نصوص أخرى اعتماداً على أل العهد عند السامع أو المتلقي، قال تعالى:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }البقرة127

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ }البقرة125

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ }البقرة158

{وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ }الأنفال35

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }الحج26

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }قريش3

جميع كلمات (البيت) التي أتت في النصوص السابقة المعرفة بأل التعريف هي أل العهد، التي تعني أن البيت معروف في ذهن المخاطب، ولا يوجد حاجة من تحديده مرة ثانية، وينبغي على المخاطب أن يُبقي هذا المعنى بذهنه عند قراءة النصوص الأخرى لأن النص القرءاني منظومة واحدة.

أهل البيت في نص التطهير ليس أقرباء النبي

لنرى استخدام كلمة (البيت) مقترنة بكلمة (أهل) دون إضافتها لأحد (أهل البيت).

{قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ }هود73

لا وجود لقرينة في النص الأول ترجع دلالة كلمة (أهل البيت) للنبي إبراهيم ، ولو كانت ترجع إليه لأتى النص بجملة: أهل بيته، أو أهل بيت إبراهيم، أو أهل هذا البيت.وبنفي القرينة عن النص، ومجيء كلمة (أهل البيت) دون إضافتها لأحد دل على أن المقصد بها هي أل العهد المعنى المعروف عند السامع أو القارئ وليس هو إلا

الكعبة البيت الحرام التي هي قبلة المسلمين، ويصير معنى النص هو: إن **رَحْمَتَ اللّهِ وَبَرَكَاتَهُ عَلَى** إبراهيم وأسرته ومن تبعه انتماء وولاء لبيت الإسلام وقبلته الكعبة، وصار مفهوم كلمة (أهل البيت) أي أهل بيت الإسلام المجتمعين بتوجههم إلى الكعبة، فرحمت الله وبركاته عليهم جميعاً.

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }الأحزاب33

كلمة (أهل البيت) في النص التالي مثل أختها في النص السابق تماماً لا علاقة لها بمسألة القرابة لا لنساء النبي، و لا لأولاده، ولا لعمه أو ابن عمه، أو غيرهم من القرابة قط، وإنما دلالة (أهل البيت) أتت بأل العهد لتدل على معنى معروف عند السامع وهو بيت الإسلام والكعبة، لذا؛ أتت كلمة (عنكم) بصيغة المذكر المنتهية بميم الجمع المتصل لتدل على المسلمين جميعاً، **{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}** إذا التزموا بما أمر الله من مفاهيم وسلوكيات مُطَهرة، وإرادة الله في النص ليست تكوينية مثل إرادته المتعلقة بالخلق ، وإنما شرعية اجتماعية متعلقة بحرية الناس واختيارهم مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }المائدة6 ، فدلالة جملة(يريد الله... ويطهركم تطهيرا) في النص المعني مثل دلالة جملة (يريد

ليطهركم) في النص الثاني، وكلاهما متعلقان بإرادة إلهية اجتماعية متعلقة بوعي الناس وحريتهم وسلوكهم.

لذا؛ ينبغي عدم مزايدة فرقة إسلامية على أخرى بادعاء الانتماء إلى أهل النبي محمد، لأن كل المسلمين هم أهله بمعنى الأتباع {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }آل عمران31، وكل المسلمين من أهل البيت انتماء للإسلام وولاء له.

وينبغي أن نضع الحروف على النقاط ونبين للمسلمين هذه المفاهيم حتى نحميهم من مكائد الشيطان والكهنوت والهامانات من أن يغتالوا عقولهم ويسلبوا أموالهم ويضلوهم عن سبيل الله وبيته الإسلام، وأهله المسلمين، وليعلموا أن التكتل والولاء في الإسلام ليس لشخص أو أسرته أو قرابته ولو كان ذلك الشخص النبي نفسه، وإنما التكتل والولاء للفكر الإسلامي المتمثل بالقرءان والعلم ، وكل المسلمين أفراد في هذا البيت.

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }آل عمران68

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} النساء125

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }الأعراف158

مفهوم الغنيمة والفيء في القرءان

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأنفال41

غنم: تدل بترتيب أصواتها هذه على غياب بعمق مستور انتهى بجمع متصل.

وثقافياً ظهر بمعنى الحصول على شيء دون جهد وتدبير له مثل الثروات التي يحصل عليها المجتمع من كنوز الأرض من معادن صناعية ومعادن كريمة مثل الألماس، والطاقة مثل النفط وغير ذلك فكلها غنائم للمجتمع و ماينبغي أن يملكها شخص بعينه.

وخُمس الغنيمة لله ، والباقي لمن ذُكر بعده معطوفاً على كلمة (الله) بدليل أن كلمة (خمسه) أتت بعد كلمة الله مباشرة متعلقة بها فقط، ولو كان كلمة الخمس تعني الجميع لتأخر مجيئها لآخر الكلام بعد كلمة (ابن السبيل) وأتى النص بصيغة (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ خُمُسَهُ) ولكن حينما أتت كلمة (خمسه) بعد كلمة (الله) في صدر النص دلت على أن خمس الغنيمة لله ، والباقي لمن ذكر بعده ، اقرؤوا: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ }النساء12، فذكر النسبة بعد المعني بالكلام يكون خاص له فقط، ومن يأت بعد النسبة يكون له الباقي.

ومفهوم كلمة (في سبيل الله) في القرءان هو في سبيل الناس عموماً لأن الله لا ينوبه شيئاً وهو في غنى عن الخلق ، ويكون ذلك العطاء والإنفاق في بنية المجتمع ونهضته ومساعدة المجتمعات المنكوبة، ومابقي من الغنيمة غير الخمس يوزع لصالح المجتمع حسب الحاجة والأولويات لأن المذكورين بالنص ليس للترتيب وإنما للتعداد، ويُترك الترتيب لكل مجتمع وظروفه .

ومفهوم كلمة (الرسول) في النص ليس المقصود بها النبي محمد، وإنما منظومة الرسول في كل زمان ومكان وتتمثل بالرسالة الأخلاقية القيمية والبحثية و العلمية فكل هؤلاء رُسل ينبغي الاعتناء بهم من أموال الغنيمة ، وبالتالي ينبغي أن يكف من يتاجر بقرابة النبي محمد وينْصُب على الناس ويحتال عليهم ويأخذ أموالهم باسم الدين، وينبغي على الناس أن يعوا ذلك ولايُدلوا بأموالهم لهؤلاء ليأكلوها بالباطل ويكنزوها لأنفسهم ومصالحهم ونشر دعوتهم الطائفية وتكريس الجهل والكراهية.

مفهوم الفيء

{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }الحشر7

كلمة الفيء من فاء وتدل على الفتح الخفيف المنضم الممتد بإثارة زمكانية منتهية بفتح وإثارة خفيفة.

وكلمة (رسوله) في النص ليس شخص النبي محمد وإنما الرسول الذي يظهر في كل زمان ومكان وكل مجتمع له رسوله الذي يحمل رسالة المجتمع نحو النهضة والرقي وتمثل ذلك بمؤسسة الرسول التي هي بمعنى مؤسسة الحكم والإدارة في المجتمع.

ودل النص ثقافياً على ما يفتح الله به على المجتمع ويضمه لملكيتهم من خلال التبادل التجاري والصناعي مع المجتمعات الأخرى فهذا يرجع توزيعه على المذكورين

في النص حسب الأولويات والحاجة التي يقررها المجتمع ، ولا علاقة لها بحرب ولا بغزوات .

وما حصل في التاريخ من غزوات ونهب لأملاك الناس (إن صحت الروايات) فهو ليس غنيمة ولافيئاً ،وإنما اعتداء واغتصاب لملكيات الناس وأعراضهم، والتاريخ ليس مصدراً دينياً ولاحجة على القرءان، ولاقيمة له صدر من أي كائن كان، والذي يمثل الدين هو القرءان ونحن غير مسؤولين عن فهم أو تطبيق الآخرين ولا ملزمين بالتبرير أو الدفاع عنهم وعن فهمهم ، {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }البقرة134

الله يجعل
أئمة للهدى وأئمة للكفر

جعل: كلمة لا تعني خلق، أو أوجد، أو أجبر، وإنما تعني تغير الشيء الموجود وفق سنن من حال إلى حال قد يكون ارتقاء ، وقد يكون انتكاساً، وبمعنى آخر: الجعل: صيرورة في كينونة الشيء مادياً أو معنوياً.

لنقرأ كيف أتى استخدامها في القرءان:

1- {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة128

من المعروف أن الإنسان يملك إرادة حرة في إسلامه أو إجرامه، والدعاء لله بأن يجعلنا مسلمين أمر متعلق باختيارنا وإرادتنا للإسلام ،وعندما تصدق النية منا في الإسلام ونعزم عليه إرادة ونمتثل ذلك سلوكاً تأخذ عملية الجعل مجراها ونتغير من حال الانتكاس إلى حال الارتقاء والنهضة ، والعكس صواب، وذلك مصداق قوله تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }الرعد11، وهذا يدل على أن الجعل عندما يتعلق بالكائن العاقل الحر فهو مرتهن بإرادته للتغيير وسلوكه نحو الارتقاء أو الانتكاس والأخذ بأسبابه .

لنقرا هذا المفهوم في تلك النصوص:

-{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام39

-{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }الأنعام112

- {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }الأنعام123

- {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }النساء5

- {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }المائدة13

- {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }البقرة224

- {وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }آل عمران176

إذاً؛ الجعل تغير في كينونة الشيء مادياً أو معنوياً إما ارتقاء أو انتكاساً، وإن تعلق بالكائن الحر ارتهن بإرادته وسلوكه وفق سنن الصيرورة.

إمام: كلمة تدل على الأصل والمرجع والمركز الذي يربط الأشياء به ويوجهها. ومن هذا الوجه سميت المرأة التي تحتضن الأولاد تربية وعناية أماً، وسميت مكة أم القرى لأنها مركز للقرى، وسمي الإنسان الذي يقود المصلين في صلاتهم إماماً، والإمامة يمكن أن تتعلق بالكائن العاقل الحر، ويمكن أن تتعلق بالشيء نحو تعلقها بكتاب { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً }هود17. {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }الإسراء71.

و إمام المؤمنين وصل إلى ذلك بإرادته الحرة وصدق عزيمته وصلاحه وتقواه وعلمه والتزامه بمنهج الله الحنيف.

وإمام الكافرين وصل إلى ذلك بإرادته الحرة وعزمه وجهله وإجرامه.

وعندما يصدق العزم من كليهما يأتي دور الجعل وفق السنن، وتتغير كينونتهما إلى الحال الذي ارتضوه وقصدوه ابتداء.

لنقرأ:

1- {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً }الفرقان74

2- {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ }القصص41

3- {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24

4- {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }التوبة12

5- {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }البقرة124

فَجَعْل النبي إبراهيم إماماً سبقه تغير في كينونته الإيمانية والعلمية وارتقى في ذلك درجات عظيمة صيرته إماماً للناس وفق السنن، وهذا دلالة جملة (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) ومفهوم (كلمات) غير مفهوم (كلام)، فكلمة الله هي أمر خارج النص القرءاني أو غيره من الكتب السابقة، ومحلها الوجود الموضوعي مثل النبي عيسى فهو كلمة الله، بمعنى أن وجوده كان بكن توجهت له خاصة دون سائر الناس، وهي اختزال في القوانين وتسريعها، ومثله كمثل آدم {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }آل عمران59، بينما وُجد الناس بعد آدم نتيجة الكلمة الأولى المتعلقة بآدم وفق سيرورة السنن، وأتم إبراهيم

أموراً متعلقة بالوجود الموضوعي دراسة ووعياً وعلماً صيرته عالماً وأهَّلته لأن يصير إماماً للناس بعد أن كان إمام هدى فقط.

وإمامة الناس متعلقة بكل الناس مسلمهم وكافرهم، وهذا ما هو واضح في مقام إبراهيم فهو إمام هدى للمتقين، وإمام منهج علمي لكل الباحثين والعلماء تمثل بالمنهج التجريبي الحنيف . والنبي إبراهيم أبو المسلمين كافة إلى يوم الدين ، أبوة ثقافة وهدى.

وهذا يوصلنا إلى أن مقام إمام الناس ينبغي أن يتحقق به أمرين:

أ- أن يكون إمام هدى للمتقين .

ب- أن يكون إمام منهج علمي حنيف.

وهذان الأمران شرطان لمقام إمام الناس، فإن انفرد أحدهما بمقام منهما فهو إمام به فقط، أي إمام هدى، أو إمام علم معين، فإن اجتمعا في إنسان صار إمام الناس، وذلك لأنه جمع بين علم الآفاق، وعلم الأنفس، وهذا المقام مفتوح إلى يوم الدين ينتظر من يصل إليه ويصير إمام الناس.

ليس كل أصحاب النبي أتباعه

إن مفهوم الصحابي؛ ليس له مفهوماً دينياً محدد مثل مفهوم الصلاة والصيام والحج، وبالتالي؛ يرجع ضبطه إلى دلالته لساناً وثقافة (القرآن).

إن كلمة صحابي ترجع في جذرها إلى كلمة (صحب)، فعلى ماذا تدل كلمة صحب؟

ص : صوت يدل على حركة متصلة محددة .

ح : صوت يدل على تأرجح شديد منضبط.

ب : صوت يدل على جمع مستقر .

وباجتماع هذه الأصوات الثلاثة بالترتيب المذكور، نصل إلى أن دلالة كلمة صحب هي حركة متصلة محددة مؤرجحة بشدة، منتهية بجمع مستقر . وتحقق ذلك بعملية الصحبة، عندما يقوم زيد بإيجاد علاقة اجتماعية مع آخر مستمرة في الزمن، وليست مؤقتة . فالصاحب ليس هو عابر سبيل في العلاقة الاجتماعية

لننظر إلى استخدام القرآن لمفهوم (الصاحب) .

1-{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (يوسف 39)، نلاحظ أن النبي يوسف عليه السلام قد خاطب من معه في السجن بكلمة (يا صاحبيَّ) ، رغم أنهما مختلفان معه في الفكر، ولكنهما مشتركان معه في المكان والحياة المعيشية، وبينهما علاقة معينة .

2-{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً } (الكهف 37).

إذاً؛ لا يُشترط للصاحب أن يكون موافقاً في فكره لصاحبه .

3-{يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ } (المعارج12-13).

4-{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (الأنعام 101).

إذاً؛ الصحبة يلزم لها العلاقة المستمرة مع الزمن، مثل علاقة الزوج بزوجته . ومن هذا الوجه نقول : أصحاب الجنة ، أصحاب النار ، صاحب الدار ، صاحب المال، وبذلك العرض؛ يظهر لنا أن القرآن لم يُعط لمفهوم الصحبة أي ميزة، أو فضل، لاحتمال وجود الصاحب المخالف بالفكر، والسلبي في التعايش ، مثل صاحبيّ الجنة، فأحدهما كفر باليوم الآخر، ولكنه مازال صاحباً للآخر المؤمن ، لأنه ليس كل كفر أو مخالفة، هو موقف عداء وحقد ، فالكفر كُفران :

أنواع الكفر

أحدهما، كفر سلبي، وهو الموقف الحيادي الانعزالي الخاص بصاحبه، لا يعادي أو يحارب أحداً .

والثاني : كفر إجرامي، وهو موقف عدائي حاقد على الآخرين المخالفين له . ويكون معياره في تصنيف الناس هو، من لم يكن معي فهو ضدي ضرورة. بينما المؤمن صاحب الحق يكون معياره هو التعايش السلمي والإيجابي مع الناس كافة،ولا يُعادي إلا من يُعاديه، ومن لم يكن معه فليس من الضرورة أن يكون ضده.

قال تعالى : {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ } (التكوير 22)، {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} (النجم 2)، فلقد وصف الله النبي محمد أنه صاحب لقومه الكفار الذين اتهموه بالجنون، والسحر والشعر، وغير ذلك من المعاداة الإعلامية الثقافية ، ومع ذلك فهو صاحبهم .

إذاً ؛ يمكن أن يكون الصاحب عدواً لدوداً لصاحبه! .

وبناءً على ما ذكرت يحق لنا أن نسأل **من هم أصحاب النبي ؟**

1- هل هم كل من رأى النبي ولو لحظة واحدة ؟ والجواب قطعاً بالنفي .

2- هل هم كل من رآهم النبي ولو لحظة واحدة ؟ والجواب قطعاً بالنفي .

3- هل هم كل من عاصر النبي واجتمع معه مرة أو مرتين ؟ والجواب قطعاً بالنفي .

4- هل هم كل من آمن بالنبي وعاصره، ولم يجتمع معه أبداً ؟ والجواب قطعاً بالنفي.

5- هل هم كل من عاصر النبي وشاهده وآمن به ؟ والجواب قطعاً بالنفي .

6- هل هم كل من عاصر النبي، وآمن به، وعاش بصورة إيجابية في حركة وأحداث الدعوة الإسلامية ينطبق عليه وصف الصحابة ؟ والجواب قطعاً بالنفي، فهؤلاء هم أتباع للنبي، وليسوا أصحابه .

7- هل كل من روى ونقل عن النبي حديثاً أو موقفاً وهو مؤمن به يصير صحابياً ؟ والجواب قطعاً بالنفي .

8- هل كل أصحاب النبي كانوا متبعين له ومؤمنين بدعوته ؟ والجواب قطعاً بالنفي. لأن قوم النبي هم أصحابه ، وهو صاحبهم ، ومعظمهم كفروا به وناصبوه الحقد والعداء واتهموه بالجنون والسحر .

9- هل أصحاب النبي كل من غزا مع النبي غزوة أو غزوتين ؟ والجواب قطعاً بالنفي، لأنه شارك بالغزو معظم أتباع النبي .

من خلال هذه التساؤلات نصل إلى بضعة أمور مهمة وهي :

1- ينبغي أن نفرق بين **مقام التابع، ومقام الصاحب،**فلا يُشترط للتابع أن يكون صاحباً، كما أنه لا يُشترط للصاحب أن يكون تابعاً .

2- مفهوم أصحاب النبي عام يشمل المؤمنين به، والكافرين به . وللتمييز بينهم ينبغي أن نحدد المفهوم ونضبطه بإضافة كلمة (تابع) بالنسبة لصاحب النبي المؤمن بدعوته، فيصير (الصاحب التابع) وبهذا العمل نميز الصحابي التابع عن الصحابي الكافر ، لأنهم جميعاً أصحاب النبي. فليس كل أتباع النبي يتحقق فيهم مفهوم الصحبة ، وبالتالي لا يصح وصفهم بأصحاب النبي . وكذلك ليس كل أصحاب النبي اتبعوه وآمنوا بدعوته ، وبالتالي

لا يصح وصف أصحاب النبي بصفة أتباع النبي !، والأمر يلزم له الضبط والتحديد لاستخدام المفاهيم .

3- مفهوم الصحبة ليس له أي ميزة أو فضل أبداً ، لأن الفضل والميزة هي لمفهوم الإتباع وليس لمجرد الصحبة .

4- لم يذكر القرآن أبداً مفهوم أصحاب النبي كما هو موجود في التراث الفقهي، ولم يذمهم أو يمدحهم ولم يأمر بإتباعهم ، وإنما أمر بإتباع سبيل المؤمنين، وهم الذين اتبعوا النبي فصاروا أتباعاً له سواء أكانوا من أصحابه أم من غيرهم .

5- أصحاب النبي المؤمنين بدعوته هم مثل الآخرين المتبعين لدعوة النبي لا فرق بينهم أبداً، إلا بالتقوى والعمل الصالح .

6- لا يوجد أي عصمة لصحابي تابع للنبي عن غيره من التابعين للنبي، وليسوا من أصحابه.

7- يمكن لأصحاب النبي أن يكفروا به، وبدعوته ويحاربوه كما حصل من قومه .

8- يمكن لأصحاب النبي التابعين له في الدعوة، أن ينقلبوا ضده فيما بعد .

9- يمكن لأتباع النبي أن يكفروا،وينقلبوا ضده، كما حصل لمجموعة منهم في ذلك العهد.

إذاً؛ لا يوجد عصمة لأتباع النبي، ولا لأصحابه التابعين أبداً . فالجميع في دائرة التكليف والحساب والمسؤولية ، والجميع خاضع لعملية الجرح والتعديل ، وإمكانية وقوع الكذب، أو الخطأ، أو الكفر واردة على الجميع دون استثناء لأي أحد منهم . وبناء على ما ذكرت من ضبط:

مفهوم الصاحب: وهو من الصحبة التي تدل على العشرة والملازمة ولايشترط لها الإيمان بفكر المصاحَب.

ومفهوم التابع : هو الإنسان الذي يؤمن بفكر المتبوع ويصدقه، وقد يكون صاحباً له، وقد يكون ليس بصاحب له.

نضرب أمثلة للتساؤل والنقاش.

1- هل أبو جهل وأبو لهب وغيرهم من سادة قريش من أتباع النبي أو من أصحابه ؟

2- هل أبو سفيان ومعاوية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم ممن دخل إلى الإسلام بعد الفتح هم من أصحاب النبي، أو من أتباعه ؟

3- هل عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من الصغار، هم من أصحاب النبي، أو من أتباعه ؟

4- هل من دخل في الإسلام بزمن النبي من القبائل العربية المجاورة، سواء رأوا النبي أم لم يروه ، وحاربوا معه أم لم يحاربوا، هم من أصحاب النبي أو من أتباعه ؟

5- أبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وغيرهم ، هل هم من أصحاب النبي ، أو من أتباعه ؟

6- أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو عبيدة الجراح ، هل هم من أصحاب النبي ، أو من أتباعه، أو من الأصحاب المتبعين للنبي.

7- هل أبو هريرة وأمثاله من الصحابة التابعين للنبي ، أو من الأتباع فقط !؟

8- هل أصحاب النبي التابعين له، أكثر عدداً، أو أتباع النبي أكثر ؟

9- هل صفة الإتباع يُشترط لها المعاصرة للنبي، أو هي مستمرة إلى يوم الدين ؟

الخلاصة

يوجد أصحاب ، ويوجد أتباع ، ويوجد أصحاب أتباع . والقرآن لم يذكر إلا صفة الإتباع، وهي صفة متحركة مفتوحة إلى يوم الدين مرتبطة بإتباع الرسول فيما أُوحِيَ إليه، لا علاقة لأي مجتمع سابق بذلك ، وما ينبغي أن يتم اتخاذ أي مجتمع، ولو كان الذي زامن نزول الوحي وصياً على فهم النص القرآني ، وكل الأفهام أمام النص القرآني سواء ، يؤخذ منها ويُرد عليها ، والحكم الفاصل للجميع هو القرآن والواقع . **ولا فضل لأحد من الناس في حفظ وتوصيل القرآن إلينا ، لأنه وصل من خلال ظاهرة التتابع**

المتنامية مع الزمن بوسيلة الحفظ والتلاوة له باللسان، والتوثيق له خطاً في الصحف، ومطابقة خطابه لمحله من الواقع . والتتابع مسألة اجتماعية لا تخضع لعملية السند والعنعنة.

لذا؛ ينبغي أن يزول جدار العصمة والتقديس عن أصحاب النبي المتبعين له، وعن أتباعه . ويخضع الجميع للدراسة والنقد التاريخي مثلهم مثل أي مجتمع . والعلاقة بيننا وبين المجتمعات السابقة مبنية على مفهوم الإتباع للرسول النبي فهو المقياس لحركة التواصل والرضى عنهم ، ولا علاقة لمفهوم الصحابة في ذلك أبداً لأن هذا المفهوم هو خاص بالنبي وحياته الشخصية والاجتماعية ، فقسم من صحابته اتبعوه ، وقسم آخر كفروا به . **أما أتباع النبي شخصياً فهم الذين آمنوا بدعوته ونصروه في زمنه ، أما من جاء بعد النبي فهم أتباع الرسول دعوة وعلماً وإيماناً ، وليسوا أتباعاً للنبي، لوفاة النبي الحبيب ، فانحصرت تابعيتهم في الرسالة المتمثلة بالقرآن العظيم.**

لذلك ينبغي إلغاء مقولة: إن الصحابة كلهم عدول، لأن ذلك عبث وجهل وكلام لا قيمة له قرءانياً ولا علمياً، ويرجع كل الرواة للجرح و التعديل إن كان ولابد أن نتعامل مع الرواية وفق منهج قرءاني علمي يتعلق بالمتن قبل السند.

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } (الأنعام 19)

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف.157)

العصمة لمقام الرسول وليس للنبي

العصمة: لغة من عصم، وهي أصل صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة.[1]

قال تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }آل عمران103، أي التزموا وتمسكوا.

وقال: {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء }هود43، أي يمنعني.

وقال: { وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }آل عمران101، أي يلتزم ويتمسك بأوامر الله.

أما العصمة اصطلاحاً: فلها عدة أوجه من حيث إسقاطها على الواقع.

أولاً: العصمة من القتل.

ثانياً: العصمة من النسيان والخطأ في التبليغ وذلك يتضمن حفظ العقل من الغياب أو الجنون.

ثالثاً: العصمة من الكفر والمعاصي.

رابعاً: العصمة من الخطأ في فهم الأشياء والحكم عليها.

فهل كانت العصمة الربانية متحققة بالأنبياء بأوجهها الأربعة؟

لنر ذلك من خلال مناقشة كل واحد بعينه:

أ- العصمة من القتل: إن الحفظ من القتل لم يكن للأنبياء جميعاً، وهذا واضح بنص القرآن قال تعالى: { يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }البقرة61

بينما نلاحظ أنه يوجد أنبياء قد حفظهم الله عز وجل من القتل نحو:

النبي إبراهيم: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ }الأنبياء69

النبي موسى: { قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ }القصص20

النبي محمد: { وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }المائدة67

---

[1] راجع مقاييس اللغة لابن فارس.

ب- العصمة من النسيان والخطأ في تبليغ الرسالة وهي عصمة ربانية.

إن الحفظ الإلهي للرسول النبي من النسيان والخطأ في التبليغ للرسالة هو أمر لازم عقلاً لمقتضى الحال من كونه يبلغ عن ربه.

قال: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى }{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى }النجم3-4

وقال: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر9

فالحفظ إنما هو لمادة الوحي وذلك يقتضي ضرورة حفظ النبي من غياب الوعي والإدراك، أو الإصابة بأي مرض نفسي مثل الاكتئاب والسحر، أو الإصابة بأي مرض جسمي يحول بينه وبين دعوة الناس مثل مرض الجزام، لأن ذلك يقدح في مادة الوحي وينفر الناس منه فاقتضى حفظه من الله عز وجل عن كل ما ذكر.

ج- العصمة من الكفر والمعاصي وهي عصمة اكتسابية معرفية علمية.

قبل الخوض في هذا النوع من العصمة يجب الكلام على مقام النبوة، فالنبوة ليست هي منصباً شكلياً يتم منحها ارتجالاً أو قرعة، وإنما هي منصب تلزم له مؤهلات وميزات وصفات معينة، فمن يتحقق به ذلك يُرشح لهذا المقام، وعملية الانتخاب والاصطفاء تكون من حق الخالق المدبر فقط، فيختص برحمته من يشاء من منطلق العلم والحكمة والخبرة والعدل الإلهي.

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14

{ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }الأنعام124

فيمنح الله تبارك وتعالى مقام النبوة للإنسان الذي تم اصطفاؤه من دون الآخرين فيحصل هذا الإنسان المصطفى على مجموعة من الأنباء عن الوجود الموضوعي بحيث يصير عنده علم بمجموعة من الحقائق ابتداءً من أكبر حقيقة في الوجود الموضوعي ألا وهي حقيقة وجود الخالق المدبر، فيدرك ذلك حق اليقين، إضافة إلى بعض الأنباء من الحقائق الموضوعية عن الكون، فيصير هذا الرجل في مقام النبوة،

إذاً؛ مقام النبوة هو منصب علمي ومعرفي، وليس منصباً إدارياً أو شكلياً لا محتوى له، فالنبوة علوم ومعارف ترفع صاحبها إلى مقام عظيم من الإيمان بالخالق المدبر.

إن العصمة من الكفر والمعاصي إذا كانت ربانية فهذا يقتضي قهر المعصوم والسيطرة على إرادته بحيث يصير موجهاً من قبل قوة تفرض ذاتها عليه، وبالتالي فلا إرادة له ولا فضل أو ثواب في ترك المعاصي وفعل الطاعات لأنه مسلوب الإرادة ومسلوب الشهوات الإنسانية، بينما نلاحظ من خلال سيرة الأنبياء جميعاً أنهم يملكون إرادة حرة، ولهم شهوات الإنسان، وهذا شيء طبيعي لأنهم من البشر {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ }الكهف110، ونفي ذلك عنهم هو نفي لبشريتهم وقد عاملهم الله على هذا الأساس البشري [الإرادة الحرة والشهوات الإنسانية] فقال جل شأنه:

{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ }{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ }{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } الحاقة 44- 46

وهذا التهديد الإلهي للأنبياء الصادقين ولايشمل الأنبياء الكاذبين، فهو صريح في أن النبي يملك القدرة على التقول على الله، ولولا ذلك لما كان للتهديد أي معنى أو مبرر إذا كان النبي لا يملك قدرة على الكذب، ولنزل عوضاً عن التهديد إخبار من الله بأن هذا النبي مسلوب الإرادة والشهوات وبالتالي فهو مجبور مقهور ليس له من الأمر شيء!

لذا؛ العصمة من الوقوع بالكفر أو المعاصي إنما هي عصمة إرادية اكتسابية وليست عصمة ربانية، وتكون في الواقع من خلال العلم والمعرفة لحقائق الأمور، لأن النبوة علوم ومعارف فهذا يقتضي عصمة صاحب هذا المقام من منطلق العلم اليقيني لعظمة الخالق سبحانه وتعالى والاستحضار الدائم لوجوده{قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }طه46، والمعرفة لبعض الحقائق الكونية التي تزيد إيمانه بعظمة الخالق وقدرته على كل شيء فيتشكل عند النبي إرادياً مانع من الكفر والمعاصي من منطلق الإيمان بالله العظيم رغبة إليه ورهبة منه ومحبة له.

وهذه العصمة من الكفر والمعاصي ممكن أن يصل إليها العلماء لأنه لا يخلو إنسان من وجود أمور معينة تكون بالنسبة إليه موانع بشكل حازم، بل لا يفكر أصلاً بفعلها نحو أن يقتل الإنسان نفسه، أو يقتل أمه أو ابنه، أو أن يخرج إلى الشارع عارياً.. إلى غير ذلك من الأمور التي تكون عند صاحبها من المسائل المعصوم عن فعلها من منطلق المفاهيم التي يحملها بشكل إرادي وذاتي.

فالذي عنده علم عن شيء يتعامل معه بحسب علمه المسبق.

فالعالم الذي يعلم أن اللحم ملوث وتناوله يؤدي إلى الهلاك الحتمي، فإنه يتعامل معه حسب علمه بمآله فيتشكل عنده مانع ذاتي عن تناول هذا اللحم الملوث، بل لا يفكر في تناوله ولو عرض عليه المال والمنصب، فإنه يبقى على تمنعه وبشدة لأنه يعلم أن هذه الإغراءات كلها وهمية إذا تناول اللحم الملوث فإنه سوف يهلك ولن يحصل على أي شيء، حتى أنه لو جاع فهو لا يفكر بسد جوعه بالتناول منه، وهذا الإصرار والتمنع كان نتيجة علمه بمآل الأمر حقيقة فتشكلت عنده العصمة من سلوك هذا الفعل القاتل!

والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء والمعارف لحقائق الأمور ومآلها التي يحصلونها من خلال السير في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ }العنكبوت20، يصلون من خلال هذه المعرفة إلى الإيمان بالخالق المدبر ويقولون: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }آل عمران191

ويرون عظمة الخالق وقدرته من خلال آيات الآفاق والأنفس{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }فصلت53

عندئذ يذعنون للحق ويخضعون له. وعند استحضار هذه الحقائق الإيمانية التي وصلوا إليها من خلال الحقائق الكونية [آفاق وأنفس] يلزم منها خشية الله سبحانه وتعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }فاطر28، فيتولد من هذه المعرفة والخشية والتعظيم لله تبارك وتعالى قوة في أنفس العلماء تمنعهم

وتردعهم عن الوقوع في الكفر أو المعاصي، وكلما ازداد إيمانهم بعظمة الخالق ازدادت خشيتهم له، وبالتالي تزداد عصمتهم عن فعل المعاصي بشكل إرادي وذاتي منبثقة من علمهم واستحضارهم لهذا العلم.

د- العصمة عن الخطأ في فهم الأشياء والحكم عليها وهذه لا تكون لأحد من الخلق كائن من كان.

إن الإنسان محدود بحواسه ومحدود بإدراكه للأشياء، كما أن علمه يكتسبه اكتساباً وليس علماً ذاتياً، والاكتساب للعلم يكون من خلال السير والدراسة والتدبر للواقع والجدولة والتصنيف للمعلومات وتقليمها، {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ }العلق4.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ }العنكبوت20

ويزداد العلم عند الناس كلما امتد بهم الزمان فيتسع أفق المعرفة أضعاف ما كان عليه سابقاً، والوصول إلى الصواب يكون من خلال تراكم معلوماتي يحتوي على أجزاء كثيرة من الصواب، فيقوم الباحث بعملية الربط بينهما والاستقراء لها، إذاً؛ الإنسان لا يصل إلى العلم إلا من خلال السير في الأرض والدراسة والتدبر، وذلك لأن التفكير لا يتم إلا بواقع يكون محلاً له ومهما حصل الإنسان في حياته على معلومات فإن ما يخفى عليه أكثر بكثير مما علمه.

{ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء85، فالناس لا يعلمون كل شيء وبالتالي فما أكثر أخطائهم في تفسير الأشياء أو الحكم عليها.

فصفة عدم العلم أو المعرفة صفة لازمة للإنسان {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً }النحل78، وكذلك صفة الخطأ لازمة للإنسان كون معلوماته ومعارفه اكتسابية ومحدودة، وكونه محدود الإدراك [كل بني آدم خطاء] وهذا واقع مشاهد وهو من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان، ولا يستثنى من ذلك أحد من الناس حتى ولا الأنبياء أنفسهم لأنهم من البشر، وينطبق عليهم ما ينطبق على البشر هذا ما أثبته الله سبحانه وتعالى نفسه في كتابه إذ قال آمراً لرسوله: {قُلْ إِنَّمَا

أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ }الكهف110، فلا يوجد إنسان يعلم كل شيء ويفهم بكل شيء، ويستطيع أن يحكم على كل شيء.. لأن هذه الصفات لا تكون لمحدود، وإنما تكون لمن هو أزلي في الوجود سرمدي في البقاء.

قال تعالى معلماً نبيه:

{ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ }الأعراف188

{قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ }الأحقاف9 ، فهذا النوع من العصمة غير موجود لأي كائن حتى أن الملائكة أنفسهم غير متحقق بهم العصمة في الفهم الصواب والحكم على الأشياء.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة30

بعد بحث العصمة بأوجهها علمنا أن العصمة الربانية لا تكون إلا في حال إنزال وحي إلى النبي فيتم حفظه والعناية به من النسيان والخطأ في التبليغ أو فقدان العقل أو الإصابة بالجنون وما شابه ذلك مما يعيق عملية تبليغ دعوة الله والإنذار.

فالعصمة الربانية ليس المقصد بها شخص الرسول نفسه وإنما المقصد بها هو مادة الوحي، لذا، استمرت عملية الحفظ الإلهي لمادة الوحي بعد وفاة النبي وذلك بقوة ذاتية قائمة في تركيب بنية الكتاب الذي أنزله الله ومصداقيته في الواقع، وتلاوته من قبل الناس بشكل متتابع كما نزل على النبي ومن هذا الوجه يظهر لنا أن الرسل الأنبياء أصحاب الرسالات جميعهم معصومون عن القتل لاستمرار وحفظ الرسالة بخلاف الأنبياء الآخرين فلقد تعرضوا للقتل وذلك لأنهم مجرد أئمة وعلماء ودعاة.

الخلاصة:

أولاً: اكتمل نزول الوحي على النبي {.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً..}المائدة3.

ثانياً: بما أن الدين قد اكتمل نزولاً اقتضى ختم النبوة الإلهية.

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً }الأحزاب40.

ثالثاً: مادة الوحي محفوظة من التحريف والنسيان والاندثار {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر9.

رابعاً: قام النبي بتنفيذ أمر الرب تبارك وتعالى وبلغ كل ما نزل عليه من ربه. {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }المائدة67.

خامساً: كان البلاغ للناس جميعاً وليس خاصاً لأحد.

{قلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }الأعراف158

العصمة والأئمة من أهل بيت النبوة

إن مفهوم العصمة للأئمة دخل على الثقافة الإسلامية ولبس لبوسها، ووضعت له المبررات ونصبت له الأدلة من أي نص ممكن توظيفه لتأكيد هذا المفهوم المسبق الدخيل، وكان ذلك نتيجة الصراع السياسي على السلطة فحتى تتم عملية حشد الناس وتجنيدهم خلف قيادات معينة لابد من مبرر لذلك فكان المبرر:

أولاً: هو اختيار أهل بيت النبي وذلك لمكانتهم الاجتماعية بين المسلمين فهم قرابة النبي ولهم احترامهم وتقديرهم، فاستغل المغرضون هذه المكانة بين الناس ودفعوهم لقيادة المعارضة بشكل أو بآخر، ووضعوا نصوصاً تشيد بعظمتهم، بل أعطوهم صفات لا تكون إلا للخالق الأزلي نحو العلم بما كان وما يكون وما سيكون[1] ونشروا أمثال هذه الأفكار بنصوصها الموضوعة على لسان النبوة والأئمة أنفسهم[2].

ثانياً: اخترعوا فكرة العصمة للأئمة ليعطوهم مصداقية لإمامتهم دون الناس جميعاً ومبرراً لالتفاف الناس حولهم ليصلوا أخيراً إلى مطامعهم السياسية واستلام السلطة، ولعل أقوى وأقرب مثال على ما ذكرنا من توظيف الدين في السياسة واستغلال أهل البيت ومكانتهم الاجتماعية لقيادة المعارضة ضد النظام الحاكم وشجب الثقة عنه هم العباسيون فلقد وظفوا ذلك أحسن توظيف، واستطاعوا من خلال المعارضة بقيادة الأئمة من أهل البيت إزالة الحكم المستبد الأموي واستبداله بحكم آخر مستبد، ولكن بصورة ثانية وأفكار أخرى، وأُبعد الأئمة من أهل البيت لانتهاء دورهم ورجعت المعارضة من جديد ليستغلها كل من يطلب الحكم واقتضى ذلك إلى إيجاد فكر مستقل متميز عن الفكر السائد لأن الموافقة في الفكر تبطل وتلغي

---

[1] راجع كتاب الكافي فهو مليء بأمثال هذه النصوص الموضوعة التي تصف الأئمة بصفات لا ينبغي أن يوصف بها إلا الخالق المدبر.

[2] راجع نقد العقل الإسلامي للشيخ الركابي.

المعارضة وفي حال استمرت المعارضة مع التوافق الفكري يؤدي إلى تكشف المقصد من الثورة ويظهر السبب الحقيقي الكامن في النفوس من الطمع في السلطة، فلذا؛ كانت عملية إيجاد إيديولوجية مخالفة أمراً لازماً لتغطية الهدف السياسي ومبرراً للمعارضة وقوة ضاربة يلتف حولها الناس، وهذا ما حصل بالفعل، واستمر الصراع السياسي على السلطة من خلال توظيف الفكر الديني بواسطة أهل البيت ومنحهم صفة الإمامة الإلهية المعصومة ليضفوا عليهم صفة القداسة والمصداقية في الواقع.

فمن هذا المنطلق تكمن أهمية فكرة عصمة الأئمة، إنها القداسة والمصداقية والبديل عن مفهوم النبوة لالتفاف الناس حولهم لتوظيفهم في عملية استلام الحكم واستبدال حكم مستبد بمستبد لاحق!

ولكن بعد انتهاء الأئمة الأحد عشر وخلو الزمان من وجود الإمام المعصوم أدى ذلك إلى ضعف توظيف الفكر الشيعي لممارسة السياسة والصراع على السلطة فقام المغرضون بتطوير فكرة الإمامة واخترعوا فكرة غيبة الإمام الأخير ورجعته مرة ثانية ليقوم بمهمته وادعوا أن هناك من كان يلتقي معه في عالم المجهول يتلقى منه الأوامر ومن ثم يقوم بتوصيلها إلى الناس، وهذه الأوامر لم تكن في الحقيقة إلا أوامره هو ومن خلفه من المغرضين السياسيين!

ومع الزمن وتطور الناس واتساع أفق المعرفة صارت فكرة غيبة الإمام بصرف النظر عن طريقة غيبته ووجوده الحالي صارت باهتة هزيلة فقدت مصداقيتها في الواقع وصارت وهماً وأشبه بخيوط العنكبوت محاكة في عقل الشيعي لا وجود موضوعي لها خارج ذهنه. مما اضطر بعض قيادة الفكر الشيعي إلى تطوير فكرة الإمامة لإعطائها الحياة وإيجاد مصداقية لها في الواقع فاخترعوا فكرة منصب ولاية الفقيه ليقوم مقام الإمام علمياً، ويقود الناس عملياً ويجسد مفهوم الإمام الغائب، وتبقى فكرة الإمامة محلها الذهن تموت بتقادم الزمن وهذا ما سوف يحصل عاجلاً أم آجلاً.

ولنشر الوعي وتسريع عجلة النهضة والتغيير والارتقاء في الأمة سنناقش فكرة العصمة للأئمة عقلاً ونقلاً، وذلك لا يتم إلا إذا استصحبنا معنا بحث عصمة الأنبياء وأوجه العصمة في الواقع التي هي:

1- العصمة من القتل.

2- العصمة من النسيان والخطأ في التبليغ وهذا يقتضي العصمة من الجنون وأي مرض يصيب العقل أو النفس.

3- العصمة من الكفر والمعاصي.

4- العصمة من الخطأ في الحكم على الأشياء ومعرفتها.

إن عصمة الأئمة حصراً يجب أن تندرج تحت واحد من أوجه العصمة المذكورة، ولنر ذلك:

أولاً: هل المقصود بعصمة الأئمة العصمة من القتل؟

نلاحظ أن العصمة من القتل لم تكن للأنبياء جميعهم وإنما كانت لأنبياء معينين مناط بهم مهمة يجب تنفيذها، وهذا لا يتم إلا بحفظهم والعناية بهم وعصمتهم من القتل ليبقوا أحياء وليقوموا بما كلفهم الله به نحو عصمة النبي محمد فقد عصمه الله من القتل حتى يكمل ويقوم بعملية الإبلاغ والإنذار والبيان، إذاً؛ العصمة من القتل مرتبطة بالمهمة التي أنيطت بالمعصوم، وبالتالي فهي ليست لذاته وشخصه وفضله وإنما لأهمية المهمة التي كُلف بها، وكان ذلك في الواقع للرسل أصحاب الكتب فقط. فأين المهمة المكلف بها أئمة أهل البيت من قبل الله عز وجل حتى يقضي بعصمتهم من القتل؟ فإن قيل إن المهمة هي الدعوة إلى الله وتعليم أحكام الشرع، فنقول: هذا ليس خاصاً لفئة دون أخرى، بل هو واجب على علماء المسلمين ودعاتهم بشكل عام، والعصمة من القتل بهذا المبرر يجب أن تشمل العلماء والدعاة كلهم، والواقع عكس ذلك تماماً فكم من الأنبياء الذين قتلوا وكذلك العلماء والدعاة، لذا؛ لا يوجد إنسان معصوم من القتل سوى من عصمه الله عز وجل.

ثانياً: عصمة الأئمة من النسيان والخطأ في التبليغ ويتضمن حفظ العقل من الفقدان أو الجنون وما شابه ذلك.

وهذا النوع من العصمة كما هو واضح مرتبط بالرسالة وهي المعنية والمقصودة من عصمة الرسول عن النسيان أو الخطأ في تبليغها، فيتم حفظ عقله من النسيان، ولسانه من الخطأ حتى تصل الرسالة كما أرسلها الله عز وجل على أكمل وجه وأحسن عرض، فأين الرسالة التي أنزلت على الأئمة ومن الذي أرسلهم؟!

هل هي رسالة القرءان؟! فإن كانت هي فمن الثابت أن هذه الرسالة نزلت على محمد وهو رسول الله إلينا دون غيره، وقد قام بعملية تبليغها للناس من دون أن يكتم شيئاً، وعلمها القاصي والداني!

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }الأعراف158

وحفظها الله عز وجل من التحريف والاندثار والزيادة والنقصان

قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر9.

إذاَ، رسالة القرءان نزلت على محمد دون غيره، ومحمد رسول الله قد قام بتليغها للناس جميعاً دون كتمان، والله عز وجل تعهد بحفظها ابتداء واستمراراً بعد وفاة النبي وهي ما زالت تتلى إلى الآن كما نزلت تماماً.

فما هي الرسالة التي أرسلت لأئمة أهل البيت؟ هل المقصود بهذا الكلام حمل الرسالة الإلهية المنزلة على محمد إيماناً وعملاً ودعوة وعلماً، فإن كان ذلك فهذا العمل هو واجب على المؤمنين وليس خاصاً لفئة دون أخرى، وليس في دين الله امتيازات في ذلك، وإنما هو تحت متناول أيدي الناس كلهم قال تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }المطففين26.

وهذه الرسالة الإلهية موجودة، ظاهرة وليست مخفية أو محتكرة، فأين المبرر لعصمة الأئمة عن النسيان والخطأ في التبليغ إذا لم يكونوا هم رسلاً من الله؟! فضلاً عن أن الرسالة محفوظة ليست بحاجة لأحد لكي يحفظها لأن الله نفسه قد حفظها، فكون

الوحي الإلهي قد نزل بالرسالة فهذا يقتضي ضرورة عصمة الإنسان الذي نزل عليه الوحي ليقوم بتبليغها كما نزلت، وبما أن الدين قد اكتمل نزولاً، والتبليغ قد تم، اقتضى ذلك ختم النبوة، وانقطاع وحي النبوة، واستمرار حفظ الرسالة، والاستغناء التام عن وجود إنسان يُمنحُ العصمة الربانية لعدم حاجتها لأن الرسالة الإلهية صارت عصمتها ذاتية، وذلك من خلال بنية تركيب النظام اللساني للكلام، ومصداقيتها في الواقع، واحتوائها لمجموعة نظريات كلية علمية تفسر نشأة الكون والإنسان ونظرية معرفية متعلقة بالتفكير الإنساني وحصوله على المعرفة والعلم، كما أنها محتوية على شرع حدودي صالح لأن يكون الإطار والأساس والمنطلق لأي شرع يضعه الإنسان لتنظيم علاقاته الاجتماعية في أي زمان ومكان.

ثالثاً: عصمة الأئمة من أهل البيت عن الكفر والمعاصي.

إن هذه العصمة قد تحدثنا عنها بشكل مطول فلتراجع في محلها للتوسع فهي عصمة إرادية اكتسابية نابعة من العلم والمعرفة لمآلات الأمور، وبالتالي فلا يخلو إنسان من نصيب من العصمة وتزداد كلما ازداد علماً ومعرفة، وهي تحت متناول أيدي الناس كلها وليست خاصة لفئة دون أخرى، والأنبياء أنفسهم عصمتهم اكتسابية في هذا النوع من العصمة.

رابعاً: عصمة الأئمة في فهم الأشياء والحكم عليها. وكذلك أثبتنا آنفاً أن هذه العصمة لا تكون لأي كائن، فانظر مثلاً قصة النبي موسى عليه السلام والعبد الصالح، وكيف أن النبي موسى لم يستطع فهم وتفسير سلوك العبد الصالح، وبالتالي حَكم عليه حسب ما رأى فقال: {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً }الكهف71

فالأصل في الإنسان عدم المعرفة والعلم وهي صفة لازمة له {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً }النحل78، وكون صفة عدم العلم لازمة للإنسان مما يدل على استحالة رفعها أو إزالتها، وذلك لأن الإنسان محدود بإدراكه، وعلمه

اكتسابي، ومهما تعلم فإن صفة عدم العلم ملازمة له: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء85

لذا؛ كانت صفة الخطأ في فهم الأمور والحكم عليها نتيجة حتمية لصفة عدم العلم اللازمة للإنسان المحدود بكل شيء، وهذا لا يُستثنى منه أحد أبداً سواء الملائكة أم الأنبياء والرسل أم الأئمة والعلماء... الخ، فمقام النبوة الذي هو لاشك أعظم من مقام الأئمة والعلماء قال الله آمراً نبيه محمد:

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ }الكهف110، فالنبي بشر له صفات لازمة لبشريته من عدم العلم والخطأ في الفهم، والمرض الموت ويتميز عن البشر بكونه يُوحى إليه فاقتضى ذلك عصمة الوحي فقط دون غيره. فلذا الملائكة والأنبياء والعلماء لا يعلمون كل شيء!! ولا يعلمون الغيب بشكل مطلق، ولا يملكون القدرة على كل شيء..الخ فهذه الصفات لا تكون لمحدود أبداً، وإنما للخالق المدير الأزلي في الوجود السرمدي في البقاء.

فإن قالوا: إن العصمة للأئمة إنما هي في فهم الدين فقط!

فنجيب:

فهم الدين متعلق بالخطاب الإلهي ذاته وقد نزل بلسان عربي مبين، وهو خطاب للناس جميعاً، ولا يوجد أحد وصي على آخر في فهمه، والنص الإلهي محفوظ عن التحريف أو الاندثار.

وبالتالي انتفى المبرر للقول بعصمة أحد سوى الأنبياء على ضوء ما ذكرنا وليس العصمة على إطلاقها، والصواب أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء مهمتهم اجتهادية وهي متعلقة بفهم شرع الله الحدودي، ومن ثم اختيار الحل المناسب لمشكلات مجتمعهم بشرط أن لا يتجاوزوا شرع الله الحدودي ويكونوا بذلك العمل قد امتثلوا لأمر الرب عندما قال: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }الزمر55

وأعطوا الشرع الإلهي المصداقية في الواقع من حيث صلاحيته لكل زمان ومكان.

وبعد هذا النقاش سوف نسرد بعض المسائل الإشكالية التي تثبت وهمية فكرة عصمة الأئمة الاثني عشر.

1- إذا كانت مسألة عصمة الأئمة من مسائل الدين ولا يمكن لزمن أن يخلو من الإمام المعصوم، فلماذا كان عدد الأئمة اثني عشر فقط وانقطعت عملياً وفرغ الزمان من إمام معصوم؟

2- إذا كانت مسألة عصمة الأئمة من أصول الدين والإيمان هل يعقل أن يكون دليلها ظني الثبوت أو ظني الدلالة أو استنباطياً؟

3- هل يمكن لأمر أن لا يكون ركناً أو أصلاً من الدين في زمن النبي أن يصير ركناً أو أصلاً للدين بعد وفاته؟

إن النصوص كلها التي يسوقها الشيعة للاستدلال على عصمة الأئمة إنما تستخدم توظيفاً لإثبات الفكرة المسبقة الموضوعة من قبل المغرضين، فلذا نلاحظ أنهم يُحمّلون النص ما لا يحتمل أبداً لا على مستوى اللسان ولا على مستوى العقل، وسنرى على ذلك مثالاً لأقوى نص يوظفونه لتكريس مفهوم العصمة لأئمة أهل البيت ألا وهو قوله تعالى لنساء النبي:

{يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } الأحزاب 32-33.

فالمدقق في النص يظهر له بشكل واضح أن الخطاب هو لنساء النبي يُعلمهن الله عز وجل بعض الآداب والتعاليم ويأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ويأمرهن بنشر ما يسمعونه ويتعلمونه من آيات الله والحكمة، ويخبر الله عز وجل عن مقصده من هذه الآداب والتعاليم والأوامر فيقول:

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ }
فالمقصد من هذه التعاليم هو الحفاظ على سمعة أهل البيت من أن تكون على ألسنة الناس بالسوء، فأراد الله عز وجل من هذه الأحكام إذا طبقت ذهاب الرجس والتطهير لنفوس أهل البيت وسموهم الأخلاقي والإيماني من خلال السيرة الحسنة في الحياة الاجتماعية.

هذا هو الواضح من النص ابتداءً، ويظهر هنا سؤال هل أهل البيت هم فقط نساء النبي أم أن النص شمل الجميع ذكوراً وإناثاً؟ بل وجميع من يدخل بيت الإسلام، كما مرَّ معنا في شرح مفهوم أهل البيت سابقاً من الكتاب ذاته، فالمدقق في النص يجد أن نساء النبي هن من أهل البيت قطعاً وخاصة إن سياق النص كله إنما هو خطاب موجه لهن وبالتالي فلا يلتفت إلى أي رأي يحاول أن يخرجهن من أهل البيت.

ونلاحظ أن الله عز وجل قد استخدم كلمة [عنكم] بدل كلمة [عنكن] بقوله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } وهذه الميم هي للجمع المذكر ما يدل على أن الخطاب تجاوز نساء النبي ليشمل نساء أهل البيت كلهن في الخطاب ضمناً، وذلك لأن أي سوء يصيب المرأة بسمعتها إنما يصيب معها أهلها من الرجال نحو الأب والعم والأخ والابن والزوج وغيرهم من الذكور كما أن طهارة السيرة للنساء يصيب ذلك الذكور فكان الخطاب صراحة لنساء النبي وضمناً لنساء أهل البيت جميعهن فأتى المقصد الإلهي من ذلك الخطاب ومعرفاً عنه ليشمل أهل البيت جميعاً ابتداءً من نساء النبي إلى نساء أهل البيت إلى ذكورهن إلى جميع المسلمين{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } وذلك إذا امتثلتم بهذه التعاليم فإنها حتماً سوف تذهب عنكم الرجس وتطهركم تطهيراً.

ونلاحظ أن النص بعد أن ذكر نساء أهل البيت عاد إلى نساء النبي وطلب منهن {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً }الأحزاب34، وهذا الفصل بين الأوامر دليل على ما ذهبنا إليه من أن آية التطهير تنص صراحة على

نساء النبي وضمناً على نساء وذكور أهل البيت جميعاً والمسلمين عموماً. ولو جاءت آية التطهير آخر الخطاب أي بعد قوله تعالى {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ} لكانت خاصة في نساء النبي حصراً وذلك لأن الحكم الأخير لا يمكن أن يطبقه إلا هن فقط لمعاصرتهن للنبي وكون التعاليم الأولى قصد الله عز وجل أن تكون عامة لنساء أهل البيت كلهن حتى تتم عملية التطهير اقتضى ذلك فصل وإفراد الحكم الأخير بعد آية التطهير وهذا هو تفسير النص الإلهي.

بينما نلاحظ المغرضين قد قاموا بتوظيف النص لفكرتهم السابقة فقالوا:

أولاً: إن الإرادة في النص إنما هي إرادة كونية أي حتمية وذلك في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }

ثانياً: إن كلمة [عنكم] هي للجمع المذكر مما يدل على خروج نساء النبي من آية التطهير وتخصيصها في الذكور.

ثالثاً: بما إن إرادة الله كونية وهي حتمية من حيث الواقع فيدل هذا على أن طهارة ذكور أهل البيت قدر الله اللازم وبالتالي فالأئمة معصومون.

ولنناقش هذه النقاط الثلاث بشكل موجز فنقول:

إن إرادة الله حتمية من حيث الواقع والتطبيق ولا تحتمل إلا وجهاً واحداً بخلاف صفة المشيئة فإنها للاختيار وتحتمل أكثر من وجه في التطبيق[1]

فصفة الإرادة إنما هي صفة خاصة لأفعال الله {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ }البروج16

{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82

وفعل الله عز وجل من حيث الواقع اثنان:

1- فعل خلق: ويستخدم الله عز وجل كلمة كن فيكون حسب المراد وهذا الاستخدام أطلق عليه العلماء مصطلح الإرادة الكونية.

2- فعل تشريع أو قضاء:

---

[1] راجع الفرق بين الإرادة والمشيئة في كتابي(علم الله وحرية الإنسان).

وذلك أن يشرع الله عز وجل أحكاماً يريد منها مقصداً محدداً نحو قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة185، وهذه الإرادة ليست كونية لأنها غير متعلقة بفعل الخلق وإنما متعلقة بفعل التشريع ولذلك جاءت بعد ذكر أحكام شرعية يبين الله عز وجل مقصده من هذه الأحكام بشكل محدد، فهي متعلقة بمقصد المشرع وليس بفعل ذلك في الواقع.

ب- {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }النساء26

جـ- {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً }النساء27

وهذه الإرادة جاءت بعد أن ذكر الله مجموعة من الأحكام فبين الله مقصده من هذه الأوامر بشكل محدد لا يحتمل معنى آخر.

د- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }المائدة6

يخبر الله عز وجل العباد أن هذه التشريعات ليس المقصد منها الحرج وإنما المقصد هو {وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }فالمقصد هو التطهير، واستخدم الله عز وجل صفة الإرادة فهل هي الإرادة الكونية التي هي حتمية من حيث التطبيق وبالتالي فالمؤمنون مطهرون قدراً دون اختيار منهم، أم أن الإرادة هنا

متعلقة بالتشريع والمقصد منه؟ فإذا امتثل المؤمنون لهذه التشريعات حصلوا حتماً على الطهارة.

والخلاصة أن صفة إرادة الله من حيث الواقع لها وجهان:

الأول: الإرادة الكونية: وهي لفعل الخلق [القدر].

الثاني: الإرادة الشرعية: وهي لعملية التشريع والمقصد منه [القضاء].

فإذا أردنا أن نفهم قوله تعالى {وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ } كما فهمه المغرضون بأن الإرادة كونية، والطهارة حتمية، وبالتالي فالمؤمنون معصومون ولنا الحق في ذلك ونتساوى ونصير جميعاً معصومين ولكن الصواب ليس كذلك أبداً والإرادة هنا إنما هي إرادة شرعية لا علاقة لفعل الخلق هنا أي ليست كونية، وهذا ينطبق على قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }

فالإرادة هي شرعية متعلقة بالأحكام تبين المقصد منها والناس لهم الحرية في الامتثال أو عدمه لهم أن يتطهروا أو يبقوا على ما هم عليه.

أما كلمة [عنكم] فقد بينا المقصد منها وكيف جاءت لتتضمن نساء أهل البيت جميعهن مع الذكور إضافة إلى نساء النبي لأنهن الأصل في الخطاب أما استدلالهم الأخير المبني على الإرادة الكونية فقد أثبتنا أن الإرادة هنا شرعية وبالتالي سقط حكمهم المزعوم!

وقد وقعوا في تناقض عجيب عندما عّدُّوا أن العصمة للأئمة فقط مع العلم أن النص ذكر أهل البيت وهذا يقتضي حسب قولهم العصمة لجميع أهل البيت: ذكوراً وإناثاّ، علماء وغير علماء، رجالاً وأطفالاً، صالحين وطالحين، مؤمنين وفاسقين..الخ. ولا يقول بذلك أحد من العقلاء وهو قول لازم لقاعدتهم وإلا لا يوجد أحد معصوم، إما الكل حسب ما ذكرنا، وإلا فلا!

3- لقد ذكر الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه – أصول الفقه المجلد الثاني – في فصل السنة تعريفاً للمعصوم فقال:

[إن الأئمة من آل البيت عليهم السلام ليسوا هم من قبيل الرواة عن النبي والمحدثين عنه ليكون قولهم حجة من جهة أنهم ثقاة في الرواية، بل لأنهم هم المنصوبون من الله تعالى على لسان النبي لتبليغ الأحكام الواقعة، فلا يحكمون إلا عن الأحكام الواقعية عند الله تعالى كما هي وذلك من طريق الإلهام كالنبي من طريق الوحي].

وقال بعد هذا النص الذي سقناه بحرفيته:

[وعليه فليس بيانهم للأحكام من نوع رواية السنة وحكايتها، ولا من نوع الاجتهاد في الرأي والاستنباط من مصادر التشريع، بل هم أنفسهم مصدر للتشريع، فقولهم سنة لا حكاية السنة] ن هـ.

ولنقم بتحليل هذا النص المنقول بالحرف:

أ – الأئمة منصوبون من الله.

ب- الأئمة يُوحى إليهم بشكل إلهامي، كما يوحى للأنبياء بشكل تلقي.

جـ - بيان الأئمة غير بيان النبي وله الحجة ذاتها والبرهانية.

د – الأئمة مصدر للتشريع مستقل عن التشريع الإسلامي الموجود في زمن النبي!

وسوف نترك للقارئ مناقشة هذه النقاط الأربعة المثبتة في النص الذي نقلناه آنفاً من خلال استحضار ما أثبتنا من مفاهيم ليحكم بنفسه على بطلانها وزيفها.

4- إذا كانت الإمامة منصباً إلهياً سياسياً لماذا تنازل علي عن حقه هذا لثلاثة قبله؟ ولماذا تنازل الحسن بن علي عن الحكم لمعاوية ؟! ألا يعلم أن ذلك ليس من حقه وإنما من حق الله؟! فكيف يتنازل الأب وابنه ويخالفان أمر الله؟ لقد قالا حسب الرواية التاريخة: لحقن دماء المسلمين. ولماذا لم يحقنها علي بن أبي طالب ويتنازل لمعاوية قبل ابنه؟! هل الابن أوعى من الأب، أم أحرص على دماء المسلمين؟!

وأي واحد منهما على حق في ما فعل ؟!

أم أن الأمر هو ضمن مجال الاجتهاد الشخصي ولكل رأيه الذي يحتمل الصواب والخطأ بالوقت ذاته، وهذا راجع للظروف وتقدير الموقف والمصلحة وبالتالي فلا عصمة لأحد، والصراع ليس دينياً وإنما سياسياً.

ونكتفي بهذا العرض من الأدلة التي أثبتنا من خلالها بطلان فكرة العصمة الربانية لغير الأنبياء.

أما مسألة إمامة الناس سياسة فهي أمر متروك للناس أنفسهم {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }الشورى38وبالتالي فالدولة إنسانية وليست إلهية.

وأخيراً؛ لابد من أن نطالب المسلمين على مختلف مللهم بالتعايش الإيجابي مع الرأي الأخر إذا اقتضى الاختلاف. {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }آل عمران103



ســامر بن محمد نزار إســلامبـولي

ـ تولُّد: دمــشق، ســورية/ 1963/م.

ـ باحث ومحاضر في الفكر الإسلامي.

ـ عُضو في اتِّحاد الكُتَّاب العرب.

ـ نشر له مقالات في مجلَّة العالم، ومجلَّة إسلام **21**، ومجلَّة شباب لك، وجريدة الوقت البحرينية، وجريدة المثقف، وجريدة الأسبوع الأدبي...

مُؤلّفاته حسب تاريخ صدورها

1- علْم الله وحرية الإنسان، دمشق، دار الأهالي،ط1 /1994 /م.

2- الآحاد الإجماع النسخ دراسة نَقْدية لمفاهيم أصولية، دمشق، دار الحكمة،ط1 /1995/م، دار الأوائل، ط 2 /2002/م.

3- الألوهية والحاكمية، دراسة علمية من خلال القرآن الكريم، دار الأوائل، دمشق، ط1 /2000

4- تحرير العقل من النقل قراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم، دار الأوائل، دمشق، ط2000/1/وط2 / 2003/م.

5- المرأة مفاهيم ينبغي أن تصحَّح، دار الأوائل، دمشق، ط1999/1/وط2 / 2002م.

6- ظاهرة النصّ القرآني تاريخ ومعاصرة (ردّ على كتاب: النصّ القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة للطيب تيزيني)، دار الأوائل، دمشق، ط2002/1/م.

7- القرآن بين اللُّغة والواقع، دار الأوائل، دمشق، ط 2005/1/م.

تقديم الأستاذ: د. سمير إبراهيم حسن، عميد كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانية في دمشق، والأستاذ: د. محمد الحبش، مدير مركز الدراسات الإسلامية في دمشق.

8- القرآن من الهجر إلى التفعيل، دار الأوائل، دمشق، ط2008/1/م.

9- غطاء رأس المرأة أو شعرها حكم ذكوري لا قرآني.2008م

10- مفهوم السنة غير الحديث.2008م

11- دراسة إنسانية في الرُّوح والنَّفْس والتفكير، تقديم الأستاذ: جودت سعيد، والأستاذ: ندرة اليازجي.

12- علْمية اللسان العربي وعالميّته، تقديم الأستاذ: د. مازن الوعر.

13- حوارات ثقافية.

14- ميلاد امرأة (قصة نَفْسية واجتماعية)، تقديم الأستاذ: ندرة اليازجي.

15- فتاوى أزهرية وأفكار فلسفيَّة (قَصَص قصيرة).

16- مفاهيم ثقافية (الله، الحرية، الشيء، العدم، الموت، الثالوث، التقمص)

17- اليهودية انغلاق فكري وإرهاب اجتماعي.

18 – نبي الإسلام غير نبي المسلمين.

19- مسودة مشروع ثقافي راشدي.

20- أسطورة نزول المسيح أو شبيهه

21- الإلحاد موقف نفسي وليس فكراً

22- مفاهيم ثقافية(الآل والأهل والقربى والغنيمة والفيء)

عنوان الباحث

مصر – القاهرة

جوال: 00201141025253

بريد الكتروني: s.islambouli@gmail.com